الخطاب القرآنيّ في تكرار القصص

قصّة النّار التي رآها موسى عليه السلام أنموذجًا

إعداد

أفراح بنت عبدالعزيز بن إبراهيم العجلان

الأستاذ المساعد في قسم اللّغة العربيّة وآدابها

بجامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

المملكة العربيّة السّعوديّة – الرّياض

The Quranic Discourse in The repeating Stories The story is Seen by Moses as An Example

Afrah Al Ajlan
Department of Arabic Language and Literature, Faculty of Arts.
Princess Noura Bint Abdulrahman University
Riyadh, Saudi Arabia
E-mail : Afaalajlan@pnu.edu.sa

Abstract

This article seeks to approach the Quranic discourse in the repeating stories. The example that the research takes is the story of the flame that Moses, peace be up on him, saw. The article focuses on clarification of stylistic performance, specially the vocabulary and sentences, and its connection with the different contexts of the one story. It also, tracks its prevalent elements in different verse in terms of creation of a perfect narrative structure. Therefore, it clarifies the target of the article which is the clarification of the eloquence of the holy Quran in terms of presenting the one meaning in different ways and various styles. There are different results of this article; one of them is that it shows the events of the story which require by the context and suite the recipient which explains their disparity in their length and shortness, brevity and verbosity. This article recommends the importance of the creation of an accurate methodology focuses of the Quranic story and studying its stylistic characteristics in a new point of view.

Keywords: discourse – the repeating -Thestory– Moses

الخطاب القرآنيّ في تكرار القصص { قصّة النّار التي رآها موسى عليه السلام أنموذجًا}

أفراح العجلان
قسم اللّغة العربيّة وآدابها ، كلية الآداب ، جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن، الرّياض، المملكة العربيّة السّعوديّة.
الإيميل: Afaalajlan@pnu.edu.sa

الملخص

يسعى هذا المقال إلى تناول الخطاب القرآني في القصص المتكررة. المثال الذي يأخذه البحث هو قصة اللهب الذي رآه موسى عليه السلام. يركز المقال على توضيح الأداء الأسلوبي ، وخاصة المفردات والجمل ، وعلاقته بالسياقات المختلفة للقصة الواحدة. كما أنه يتتبع عناصره السائدة في آيات مختلفة من حيث إنشاء بنية سردية مثالية. لذلك ، يوضح الهدف من المقال وهو توضيح بلاغة القرآن الكريم من حيث تقديم المعنى الواحد بطرق مختلفة وأساليب مختلفة. هناك نتائج مختلفة لهذه المقالة ؛ واحد منهم هو أنه يظهر أحداث القصة التي تتطلب من السياق وتناسب المتلقي الذي يفسر التفاوت في طولها وضيقها ، والإيجاز واللفظ. توصي هذه المقالة بأهمية إنشاء منهجية دقيقة تركز على القصة القرآنية ودراسة خصائصها الأسلوبية في وجهة نظر جديدة.

الكلمات االمفتاحية: تكرار – الخطاب – القصة – موسى عليه السلام

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين..

أما بعد

فالقصّة مَعْلم من معالم القرآن الكريم، وأحد أنواع علومه التي هي مناط الدين(١)، وتعدّ شكلاً خطابيًّا يتغيَّا التأثير في المتلقي ترغيبًا وترهيبًا.

وترد قصص الأنبياء منجَّمة في كتاب الله العزيز؛ لمقاصدَ متنوعة، وغايات مختلفة غير أنها تأتلف في الغرض العام، والهدف الأساس.

من هنا بزغ موضوع البحث؛ إذ إن قصة النار التي رآها موسى عليه السلام **إحدى القصص التي تعدد ورودها في القرآن الكريم؛ حيث وردت في ثلاث سور هي:**

- طه: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾.

- النمل: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

- القصص: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٨١.

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ويركز هذا البحث على ما يميز خطابها القصصي بلاغيًّا عبر تبيّن أدائها الأسلوبي في سياقاتها المتعددة، وتحديد عناصر القصة المبثوثة في تلك السور؛ مما يظهر إحدى فوائد تكرير القصص القرآني المتمثّل في تتميم مضامين القصة وأحداثها(١).

وقد تأسّس البحث على تمهيد، ومبحثين، وخاتمة على النحو التالي:

التمهيد: القصة القرآنية: مفهومها، أنواعها، أغراضها وفائدة تكرارها.

المبحث الأول: الأداء الأسلوبيّ.

المبحث الثاني: عناصر الخطاب القصصيّ.

الخاتمة: وفيها خلاصة البحث وأهم نتائجه.

والله أسأل أن ينفع به، وهو الهادي إلى سواء السبيل،،

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/٢٦.

التّمهيد

القصة القرآنيّة: مفهومها، أنواعها، أغراضها وفائدة تكرارها

تعرّف القصة القرآنية أنها أخبار عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة(١)، وهي وثيقة صادقة تصل حاضر الإنسان بماضيه، ولم تكن عرضًا أجوف للتاريخ، وإنما انتقاء لنواحيه السلبية والإيجابية؛ محققة بذلك أهدافها العظمى؛ «فما جاء القصص القرآني إلا ليرفع لأبصار الناس وبصائرهم شواهدَ من تاريخ الإنسانية، تتماثل فيه مواقفها، وتتشابه طوائفها؛ فالناس هم الناس؛ تحكمهم نوازع، وتتحكم فيهم طبائع، وينتظمهم وجود تجري عليه سنن الخالق سبحانه وتعالى»(٢). وضميمة على ذلك فهي تنهض بوظيفة سياقية في كل سورة؛ تأتلف مع مقصودها العام.

والقصص القرآني منتظم في ثلاثة أنواع(٣):

الأول: قصص الأنبياء: تضمنت دعوتهم قومهم، ومراحلها، وموقف المناوئين لها وعقباهم، ومآل المؤمنين بها، وإظهار صفات الأنبياء عبر طرف من الأحداث التي مرت بهم نحو: قصة نوح، وموسى، وأيوب -عليهم السلام-.

الثاني: قصص تتعلق بحوادث غابرة وأشخاص لم تثبت نبوتهم: نحو: قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، ومريم، وأصحاب الأخدود.

الثالث: قصص تتعلق بالحوادث التي وقعت زمن الرسول ﷺ نحو: غزوة بدر، وأحد، وحنين، والهجرة، والإسراء والمعراج.

وجاء هذا التقسيم حسب الأزمنة والشخوص؛ فكان الفاصل الزمني عهد الرسول ﷺ قبله أو بعده، والاعتداد بالنبوة من عدمها مقياس للشخوص.

---

(١) ينظر: مباحث في علوم القرآن: ٣١٦، والقصص القرآني في منطوقه ومفهومه: ٤٥.

(٢) القصص القرآني في مفهومه ومنطوقه: ١٤٢.

(٣) ينظر: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: ١٩٠-١٩١، والقصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: ٢٨.

وثمَّة أغراض جليلة من سوق هذه القصص في القرآن الكريم أوجزها في التالي[1]:

١- إيضاح أسس الدعوة وأصول الشرائع، وتثبيت الدين ببيان وحدة دعوة الرسل، والتأكيد على أن ملة الكفر واحدة مهما اختلفت الأزمنة.

٢- تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد مآثرهم.

٣- إثبات النبوة وصدق الرسول ﷺ بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال، وإيناس لقلبه وتثبيت له على ما يلاقيه من صدود وأذى من قومه؛ فهو ديدن المكذبين مع رسلهم.

٤- تثبيت المراد في النفس عبر الإقناع العقلي والتأثير العاطفي الذي تحدثه القصة.

٥- الإبانة عن قدرة الله ﷻ وعظيم سلطانه، وترغيب المؤمنين وتثبيتهم على الحق والنور المبين، وترهيب العصاة العاتين؛ ليغيروا ما ألْفوا عليه آباءهم، وينتقلوا من حَرُور الشرك إلى ظل الإيمان.

وقد تكرر بعض القصص في مواضع متفرقة؛ فكان ذلك ظاهرة قرآنيّة دفعت منكري القرآن الكريم إلى الطعن في إعجازه وبلاغته؛ فوصفوه بالعبث والاضطراب؛ إلا أن تكرارها جاء لفائدة معنويّة، ووظيفة سياقيّة، بل هو من دلائل الإعجاز، يقول الباقلاني: «إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، وتؤدي معنًى واحدًا من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة، وتتبيّن به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في موضوعات مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرّرًا»[2]؛ فمن فوائد

(١) ينظر: قصص القرآن الكريم: ٤٥، ومباحث في علوم القرآن: ٣١٨، وفي الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: ١٨٧، والقصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث: ٣٢-٣٧.

(٢) إعجاز القرآن: ٦١.

إعادة القصص القرآني:

١- إظهار بيان القرآن الكريم عبر إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وأساليب متنوعة وفاقًا للمقام، ومقتضى الحال؛ «فكل سورة أعيدت فيها قصة؛ فلمعنى أدعى في تلك السورة استدل عليه بتلك القصة غير المعنى الذي سيقت له القصة السابقة، ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض، وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم، والإيجاز والتطويل»(١).

٢- توكيد المعنى وتثبيته في النفوس؛ فالتكرار من أمارات الاهتمام(٢).

٣- اقتصارها في كل موضع على ما يناسبه من أحداث ومشاهد؛ فيحصل من متفرق مواضعها كمال القصة وتمامها(٣).

٤- ورود طرف من أخبار الأنبياء في سورة لم تذكر في سورة أخرى؛ ففي كل منهما فائدة زائدة على الأخرى، ومقصد مغاير(٤).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٨/١.

(٢) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢٦/٣.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ٦٨/١.

(٤) ينظر: التسهيل لعلوم التنزيل: ١٥/١.

المبحث الأوّل

الأداء الأسلوبيّ

تعدّ قصة النار التي رآها موسى عليه السلام عند رجوعه من مدين إحدى القصص القرآني التي تعدَّدَ ورودها في آي الكتاب العزيز(١)؛ فقد وردت في ثلاث سور – كما تقدم– هي: طه، والنمل، والقصص، وبينها من الائتلاف والاختلاف؛ فمن الائتلاف: «أن محصولها الإخبار عن ابتداء أمر موسى عليه السلام في رسالته، وتكليم الله –سبحانه– إياه»(٢)؛ مما يفسّر هيمنة العنصر القصصيّ المتمثّل في رؤية النار بما توحيه من تحوّل من الظلمات إلى النور، ومن ظل الغواية والتيه إلى حرور الإيمان والرشاد؛ إيذانًا ببَدْء النبوّة وحمل نبراس الرسالة؛ ليتحقق الغرض العام من هذه القصة الذي مفاده: بيان وظيفة الرسل المتمثلة في الدعوة إلى التوحيد، وتبليغ الرسالة، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، مع التحلي بالصبر، واستحضار نعمة الله على رسله بالاصطفاء.

ومع اتحاد هذه المشاهد الثلاثة في الغرض العام؛ إلا أن كل مشهد جاء مناسبًا لسياق السورة التي ورد فيها؛ ففي سورة طه جاءت قصة موسى عليه السلام تمهيدًا لنبوة الرسول؛ ليأتمّ بموسى في تحمّل تبليغ الرسالة، وأعباء النبوة، والصبر على الشدائد(٣)، وتسلية له بأن الذين كذّبوه سيكون جزاؤهم جزاءَ من سلفهم من المكذبين؛ لذا ذيّل قصة موسى عليه السلام بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾(٤).

---

(١) تعد قصص موسى عليه السلام بعامة من أكثر القصص ورودًا في القرآن. ينظر: دراسات قرآنية: ٢٥٣.

(٢) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ٦٦٨/٢.

(٣) ينظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ١٩١/٦.

(٤) ينظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١٩٣/٤.

وتجيء في سورة النمل لإفادة النظير؛ فتلقي النبيِّ ﷺ القرآن نظيرُ تلقي موسى ﷺ كلام الله، ويضيف ابن عاشور: «أن هذا من بديع التخلص إلى ذكر قصص هؤلاء الأنبياء عقب التنويه بالقرآن وأنه من لدن حكيم عليم. والمعنى: أن الله يقص عليك من أنباء الرسل ما فيه مَثَل لك ولقومك، وما يثبِّت به فؤادك»(١).

أما في سورة القصص فقد حظيت قصةُ النار بالبسط النسبي والتفصيل؛ ليأتلفَ مع الطابع العام الذي طبعت به قصص موسى؛ فقد نالت من دقة التفصيل ما لم تنله في مواضع أخرى؛ لذا نلحظ على وجه الخصوص تحديد المكان بمستتعبات الوصف فضلًا عمّا نجده من علامات تدل على التفسير نحو (أَنْ) المفسِّرة مما سيأتي بيانه في تناول التعبير الفنيّ.

ولعل في اختلاف سياق كل قصة ما يفسر تفاوتَ الأداء الأسلوبي في مستويي: الألفاظ والتراكيب، ففي قوله تعالى: ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ [طه: ١٠]، وقولِه: ﴿ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩] عبّر في الآية الأولى بالفعل ﴿ رَءَا نَارًا ﴾ الذي يفيد الرؤية البصرية؛ بدليل تعديه إلى مفعول واحد(٢)، وهو ما يدل عليه الفعل ﴿ ءَانَسَ ﴾ في الآية الثانية «أي أبصر ورأى شيئًا لم يعهده»(٣)، غير أن الثاني يعكس الحالةَ النفسيّة التي كان عليها موسى ﷺ؛ حيث ارتاحت نفسه، واستبشرت خيرًا؛ ففي ﴿ ءَانَسَ ﴾ معنى الأنس النفسي

(١) التحرير والتنوير: ١٩/٢٢٤.

(٢) ينظر: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: ٤/٤٦.

(٣) لسان العرب: مادة [أنس].

الشعوري[1]؛ مما يدل على أن التبدّل في التعبير القرآني من باب إثراء المعنى والحال، وقد تقدّم الجار والمجرور [من جانب الطور] على المفعول [نارًا] في آية القصص اهتمامًا بالمكان؛ حيث حددت هذه السورة المكانَ بدقة وعناية، ويلحظ تنوّع الرابط في الآيتين؛ فالأولى –طه– قائمة على الظرف، والأخرى – القصص– قائمة على أسلوب الشرط.

قوله تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ [النمل: ٧]، وقولُه: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩/طه: ١٠]، ورد الفعل في النمل مسبوقًا بالسين ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ وفي سورتي طه والقصص سبق بـ(لعل)؛ فهل هناك تعارض؟ يجيب عن ذلك صاحب الكشّاف بقوله: «فإن قلت: سآتيكم منها بخبر، ولعلي آتيكم منها بخبر: كالمتدافعين؛ لأن أحدهما ترجٍّ والآخر تيقن. قلت: قد يقول الراجي إذا قوي رجاؤه: سأفعل كذا مع تجويزه الخيبة. فإن قلت: كيف جاء بين التسويف؛ قلت: عدةً لأهله أنه يأتيهم به وإن أبطأ، أو كانت المسافة بعيدة»[2].

قوله تعالى: ﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] وقوله: ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وقوله: ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠]، كُرِّر الفعلُ ﴿ءَاتِيكُم﴾ في الآية الأولى في حين لم يتكرر في الآيتين الأخريين؛ وذلك لبسط الأمان، وتهدئة زوجه؛ فهو يؤكد لها عن طريق إعادة الفعل أنه سيأتيها بما يفرحها –والله أعلم– وجاءت ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ بقراءتين: الأولى: بإضافة الشهاب إلى القبس لأنه يكون قبسًا وغير قبس، والثانية: بالتنوين على أنها بدل أو صفة لما فيه من معنى

(١) ينظر: لطائف قرآنية: ٩٧.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ٤٣٢/٧.

القبس[1]. ويعزز القراءة الثانية مضمونُ آية القصص ﴿جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؛ فالجذوة عود غليظ في رأسه نار أو لم تكن؛ لذا جاء قوله ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانًا لمراد موسى عليه السلام؛ فجعلها نفس النار من باب المبالغة؛ فكأن هذه الجذوة لتشبّث النار بها استحالت نارًا[2]. وقد أفصح في هاتين الآيتين بالحاجة إلى النار وهو الاصطلاء. أما في سورة طه: فقد أفصح عن حاجته منها إلى هداية الطريق بقوله: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ أي: ذا هدى، وقوله هذا «إفصاح بما هو معلوم من قوله في سورة النمل: ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وقوله في سورة القصص: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فورد في سورة طه مُفْصِحًا بالمقصود؛ معبرًا فيها بما هو مفهوم من آيتي: النمل والقصص من معنى الكلام وسياقه فلا اختلاف في شيء من ذلك كله، ولا تعارض»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ إطناب بذكر العام بعد الخاص؛ حيث إن الهدى ليس مقصورًا على القبس، بل هو شامل لكل ما يُهْتدى به من نار أو شخص وغيره، والفائدة من ذكر العام بعد الخاص هي التعميم[4].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ

(١) ينظر: المصدر السابق: ٤٣٢/٧.
(٢) ينظر: روح المعاني: ١٠٨/٢٠.
(٣) ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ٦٧٤/٢.
(٤) ينظر: البلاغة العربية: ٦٩/٢.

ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ [القصص: ٣٠]، وقال: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴾ [طه: ١١].

جاء الفعل في سورة النمل بالفعل (جاء) بينما عبّر عنه في سورتي القصص وطه بـ(أتاها) وفي ذلك سرٌّ كشف عنه صاحب الإتيان والمجيء حيث يقول: «والوجه الذي نراه في ظاهر الآيات –والله أعلم بمراده– أن الإتيان بالفعل (جاء) في آيات النمل؛ لأن حركة المجيء كانت في بدئها فهي حركة صعبة، فيها تحمّل ومشقة، وللسياق دلالته على هذا البدء بقوله: ﴿ سَءَاتِيكُم ﴾ فالسين تدل على الاستقبال وأن حركة المجيء في بدئها، وأنه لم يصر بعد ممن حول النار. أما الفعل (أتى) في آيات سورتي طه والقصص فلأن موسى عليه السلام قد وصل إلى النار وانتهت حركة مجيئه إليها بما فيها من صعوبة، ولذلك يظهر رجاؤه فيها الذي جاء من أجله في قوله: ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾، ﴿ لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾، وكذلك قوله لأهله ﴿ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾ وذلك لأنه صار على مقربة منها»[1].

قوله تعالى: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النمل: ٩]، وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠]، وقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه: ١٢].

مع اتحاد الأقوال التي أعقبت النداء من حيث دلالتُها على التوحيد، وتوافقها في وفرة المؤكدات؛ كـ(إنّ)، واسمية الجملة، وضمير الشأن إلا أن كل قول اشتمل على دلالات خاصة؛ ففي سورة طه قال: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ مَنْبَهةً على أمر

(١) الإتيان والمجيء: ٢٠.

التوحيد الذي سيرد تفصيله وما يترتب عليه من لزوم العبادة، وأداء الشعائر فيما تلاه من آيات. أما في سورة النمل فقال: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فلتحقيق نكتة بلاغية مؤداها: أن الوصفين «[ممهدان] لما أراد أن يُظْهِرَه؛ فهو القوي القادر على ما يبعد عن الأوهام كقلب العصا حيّة»(١)، كما أن في ذلك تثبيتًا لقلب موسى الذي سيواجه أعتى الطغاة فرعون. وفي سورة القصص يجيء قوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تأكيدًا لموسى عليه السلام بأن جميع الخلائق مسخرةٌ لله ﷻ(٢)، وإيذانًا ببدء بعثته عليه السلام(٣).

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٣٥/٧.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ١١٢/٢٠.

(٣) ينظر: القصة القرآنية: ٩٠.

المبحث الثاني

عناصر الخطاب القصصيّ

يقوم الخطاب القصصي على عناصر متعددة تشكل بناءً تامًّا هدفه إحداث التأثير في المتلقي عبر إثارته حينًا، وتشويقه حينًا آخر، وقد تكوّن من جماع قصة موسى عليه السلام في السور الثلاث العناصر الموالية:

١- الشخصيات:

شخصيات هذه القصة عناصر بشريّة معينة[(١)]، وهي موسى عليه السلام، وزوجه، ونجد بعضًا من ملامح شخصية موسى النفسيّة؛ فهو الرحيم بزوجه؛ حيث أراد تهدئتها، وبثّ الأنسِ في نفسها الوجلة؛ فجزم على أن يأتيها بما يقيها من القرّ، أو ما يرشدهما إلى الطريق التي ضلاّها عند رجوعه من مدين أو بهما معًا، وهو ذلك المتفائل المستبشر المؤمن بالله -دائمًا-، فعندما رأى النار في تلك الليلة الشاتية ارتاحت نفسه وفرحت حيث قال: ﴿ءَانَسۡتُ﴾[(٢)].

وتلك الزوج الطائعة التي لم تجادل أو تناقش حين أمرها بالمُكْث، بل بقيت راضية في مكانها؛ لثقتها بزوجها وأنه سيفرحها ولا يشقيها، وقد حظيت الشخصيتان بمباركة الله لهما.

٢- الحوار:

ويكون في القصة القرآنية على أسلوب الحكاية عبر التعبير بلفظ (قال)[(٣)]؛

---

(١) ينظر: معالم القصة في القرآن: ٥٧.

(٢) ولمن حول النار الذين هم الملائكة كما عليه جملة من المفسرين، والملائكة من الشخصيات غير البشرية غير المشاهدة من فئة الخير. ينظر: المصدر السابق: ٦٨. وقد آثرت إيرادها في الهامش لأنها وردت خِلْسة.

(٣) ينظر: القصص القرآني: ١١٩.

حيث يعرض أدق التعابير عن الشخصيّة، «ويستبطن انفعالاتها، ويضعها في إطار نفسيّ معين، ويزج بالقارئ في تجربة القصة ليعيشها، وتنقله من عالمه إلى عالمها»(١).

وفي هذه القصة دار حواران: أحدهما: صريح يتجسّد في مناجاة موسى ربَّه عند الجبل، وما أسفر عنه من التكليف، والآخر: ضمني يفهم من أمر موسى زوجَه بالمُكث.

وينجرّ عن الاستئناف البياني تساؤلاتٌ أثرت التشويق في القصة؛ فقوله لزوجه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ أثار تساؤلًا في نفسها -والله أعلم-: ما الداعي للمكث؟، وقوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ فكأن موسى تساءل: لماذا أخلعُهما؟ فتأتي الإجابة لزوجه: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾، ولموسى عليه السلام: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

وهذه التساؤلات تشد انتباه المتلقي، وتحثه على الإصغاء والانتباه، وتتوق نفسه لمعرفة الأجوبة عنها.

ويتسم الحوار في القصة بالدقة في اختيار الألفاظ؛ من ذلك قول موسى عليه السلام لزوجه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ فعبّر بالمكث دون الإقامة؛ لأن الإقامة تقتضي الدوامَ، والاستمرارَ في المكان، والمكثُ من ليس كذلك(٢).

ويُلحظ في حوار الله عز وجل مع موسى عليه السلام كثرةُ الحروف المهموسة كالهاء، والتاء، والسين والفاء؛ وفي ذلك -والله أعلم- طمأنة موسى، وتخفيفٌ من روعه، ولينفذ كلامه -سبحانه- إلى قلب موسى، ويتمكن في نفسه فضل تمكن.

---

(١) ينظر: معالم القصة في القرآن: ٦٩.

(٢) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٥٠٦/٣.

كما أن للألف المقصورة في فواصل آيات طه [موسى، هدى، طوى، فتردى...] وظيفةً إيقاعيّة، حيث أعطت مزيدًا من الجلاء والوضوح؛ لامتداد الصوت عند النطق بها -والله أعلم-.

٣- المفاجأة:

وقد جاءت في هذه القصة بدون مقدمات أو أسرار، فواجهت الشخصيةَ والنظّارةَ [المتلقي] معًا في وقت واحد(١)، وهي ظهور النار لموسى عليه السلام في طريق عودته من مدين؛ حيث رأى تلك النار وحده من دون زوجه(٢) حين تاها عن الطريق، وكانت تلك النار هي نورَ الرّسالة، ونبراس النبوّة، ونقلة من التيه والضلال إلى اليقين والإيمان.

أما من جهة النظّارة؛ فمكمن المفاجأة في بناء الفعل للمفعول في قوله: ﴿نُودِيَ﴾؛ حيث تشتاق النفس إلى استطلاع القصة، ومعرفة كنهها؛ فإذا فاجأه ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ علم أن المنادي هو الله -سبحانه وتعالى- فتمكن في النفس كمال التمكن، كما أن الفعل المبني للمفعول صوّر الحال التي كان عليها موسى؛ فقد ناداه منادٍ غيرُ معلوم له(٣).

٤- العرض (التصميم):

من أساليب العرض في القصص القرآني أن يصدّر المشهد القصصيُ بألفاظ تنبّه إلى ابتداء عرض القصة(٤)، لذا نلحظ في سورة طه الاستهلال بالاستفهام المتضمن معنى التشويق(٥)، وقوله: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا﴾ زيادة في ذلك

---

(١) ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٨١.

(٢) ينظر: قصص القرآن: ١٠١.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٥/١٦.

(٤) ينظر: معالم القصة في القرآن: ٧٧.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: ١٩٣/١٦.

التشويق؛ فرؤية النار تحتمل أحوالًا كثيرة(١)، ثم تعرض القصة بعد أن شدّ انتباه المتلقي. أما في سورة النمل؛ فقد بدأت بالارتداد الذهني لاستذكار قصة موسى عليه السلام؛ حيث صدّرت بالظرف (إذ) المنصوب بمضمر تقديره: واذكر قصته إذ قال لأهله، ثم تُعرض القصة بعد أن حرّكت الأذهان، وحثّت على الإصغاء.

أما في سورة القصص؛ فقد ربط القصة بنهاية الحدث السالف لها على سبيل الإجمال؛ حيث ذكر أن موسى عليه السلام قضى أتم الأجلين وأكملهما(٢).

ثم تأتي القصّة بَعْدُ؛ مما يفيد المرَاتبيّة، والترابط بين أحداث القصة الكبرى فضلًا عمّا تؤدّيه الجملةُ من تهيئة لسوق أحداث المشهد القصصي ضمن مشاهد القصة الكبرى.

٥- الزمان والمكان:

[أ] الزمان: لا يذكر الزمن في القرآن بجميع تفصيلاته عند ذكر الأحداث؛ لأن قصده العبرة لا التأريخ؛ فالزمن كاليد الحاملة للحدث؛ فلا يذكر منه إلا ما كان لازمًا مؤثرًا في النفوس(٣).

والمتأمل في هذه القصة يرى أنها وقعت في ليلة شاتية(٤) كما يبدو من أنسه بالنار التي شاهدها؛ ليأتي منها بما يصطلي به هو وزوجه، وقد كان الوقت ليلًا، فعندما رأى النار أمِلَ أن يجد فيها ما يهديه ويضيء له طريقه، وقد وجد النار التي تدفئ الأرواح فضلًا عن الأبدان، وتهدي في الرحلة الكبرى لا في السرى.

وللسين في الفعل ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ وظيفة زمانية؛ حيث دلّت على الاستقبال وأن حركة المجيء في بدئها(٥).

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١٣/٥.

(٢) ينظر: قصص الأنبياء: ٢٤٨.

(٣) ينظر: معالم القصة في القرآن: ٧٨.

(٤) انظر: قصص القرآن: ٢٧١.

(٥) ينظر: الإتيان والمجيء: ٢١.

[ب] المكان: وهو الوعاء الحامل للحدث، وللحديث عنه في القرآن أهمية بالغة؛ لما له من تأثير نفسيّ وإيحاءات لها قيمة في الأحداث(١)، وقد تُحَدَّد فيه الأماكن الجغرافيّة إذا لزم للحدث ذلك التحديد؛ فمكان قصة النار هو طريق عودة موسى عليه السلام من مدين متجهًا إلى مصر حيث اشتاق إلى أهله ووطنه، وتحديدًا في شاطئ الوادي المسمّى «طوى» إلى جوار جبل الطور، والوادي إلى يمين موسى عليه السلام في البقعة المباركة؛ كما ذكر ما يحويه ذلك المكان؛ ففيه شجرة نابتة على شاطئ الوادي، وتلك النار المتأججة؛ حيث جاءت منكرة في قوله: ﴿نَارًا﴾؛ فأفادت معنى التعظيم –والله أعلم– كما أبرزت الآيات صفات ذلك المكان، فوصفت الوادي بالمقدّس؛ أي: المطهر؛ حيث أخرج الله منه الكافرين وعمَرَه بالمؤمنين(٢). وجاءت هذه الصفة (المقدّس) –في سورة طه– متأخرة (بعد الحوار)؛ ليرتّبها بعد الخلع؛ فيقيم بذلك السبب؛ في حين جاءت صفة البركة –في سورة القصص– متقدمةً (قبل الحوار) للتأكيد على شرف المكان، –والله أعلم–.

وتتضافر هذه العناصر لتؤلف بناءً قصصيًّا متكاملًا؛ فيضاء عنصر منها في موضع ويضاء عنصر آخر في موضع آخر؛ فالمتأمّل في مواضع ورود قصة النار في السور الثلاث يدرك ما عليه تلك القصة من حقائق وصور؛ ففي سورة طه عرض مطنب لما جرى من وحي، وتحميل موسى الرّسالة، وما يترتب على ذلك من القيام بتكاليف العبادة، ودعوة قومه إلى التوحيد.

أما في سورة النمل فتسفر عن شخوص غير بشرية غير مشاهدة من فئة الخير هي الملائكة، وقد أسدل الله –سبحانه وتعالى– عليها البركة.

في حين يُلحّ في سورة القصص على عنصر المكان؛ لتضفي عليه القداسة،

---

(١) ينظر: معالم القصة في القرآن: ٨٣.

(٢) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الوراية والدراية من علم التفسير: ٥٠٧/٣.

والبركة والتشريف، وقد ظهر ذلك الإلحاح في تتابع المتعلقات [الجار والمجرور].

وحدود البناء المتكامل لا تقف على عناصر القصة الكبرى، بل تتجاوز ذلك إلى دقائق التفاصيل؛ فالزمان تُصَوَّرُ لحظاته لحظةً لحظةً؛ منذ بدء حركة مجيء موسى عليه السلام إلى تلك النار، وصعوبة تلك الحركة [سورة النمل] إلى أن وصل إليها [سورة طه والقصص].

وبهذا يكتمل بناءُ القصة عرضًا، وحوارًا، وشخصياتٍ، ومكانًا. أما عنصر المفاجأة فيكاد يكون محورَ القصة مثلما أن الزمان مدارُها الذي تسير فيه قُدُمًا.

الخاتمة

تناول البحث قصة النار التي رآها موسى عليه السلام في مواطنها الثلاثة التي وردت فيها من حيث اللغة والأداء على مستوى الألفاظ والتراكيب، وما ظهر من عناصر بنائها القصصي، وقد خلصت من ذلك إلى عدة نتائج أوجزها في التالي:

– أن تكرار القصة القرآنية يتوافق ودائرة المخاطبين ومقتضى الحال؛ فيسرد من الأحداث ما يتناسب مع ذلك طولًا وقصرًا، وإجمالًا وتفصيلًا.

– تغاير الأسلوب في كل مرة أعيدت فيه القصة؛ فيلمح تقديم وتأخير، وحذف وإبقاء؛ مما يجعله مزية اختص بها القرآن الكريم.

– تعدّ المفاجأة العنصر المستمر في قصة موسى عليه السلام والنار.

– لعل في قصة موسى عليه السلام والنار ما يدحض فرية القائلين بأن قصص القرآن من المتشابهات.

وبعد؛ فإن القصة القرآنية تستلزم منهجًا خاصًا دقيقًا لمعالجتها يهدف إلى إبراز خصوصيتها بإظهار مقوماتها الغنيّة، وما تنفرد به من خصائص أسلوبية؛ فتكون دراستها مبنيّة على رؤية بلاغية نقدية.

ثبت المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

القرآن الكريم:

ثانيًا: المراجع:

– الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: فواز زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

– إعجاز القرآن، الباقلاني، قدم له وشرحه وعلق عليه: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

– الإتيان والمجيء، فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم، د. محمود موسى حمدان، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

– أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، الإمام أبو محمد عبدالله جمال الدين بن هشام الأنصاري، المكتبة العصرية، د.ط، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.

– البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ط، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

– التحرير والتنوير، ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ط، د.ت.

– التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزيّ، تحقيق: د. عبدالله الخالدي، دار الأرقم بن أبي الأرقم للنشر والتوزيع، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ.

– الجانب الفني في قصص القرآن الكريم، د. عمر محمد عمر باحاذق، دار المأمون للتراث، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

– جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، السيد أحمد الهاشمي، تحقيق:

يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

– حاشية الشهاب المسمّاة عناية القاضي وكفاية الرّاضي على تفسير البيضاوي، دار إحياء التراث، بيروت، د.ط، د.ت.

– دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، مصر، د.ط، د.ت.

– روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، قرأه وصححه: محمد حسين العرب، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.

– فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، حققه وخرّج أحاديثه وفهرسها: سيّد إبراهيم، دار زمزم، الرياض، ط١، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

– في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، أ.د. وليد قصاب، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

– قصص الأنبياء، الإمام الحافظ عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل بن كثير القرشيّ الدمشقيّ، إعداد وتقديم: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

– قصص القرآن، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق ونشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

– قصص القرآن، علي محمد البجاوي، محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، د.ط، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

– القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

– القصص القرآني في منطوقه ومفهومه مع دراسة تطبيقية لقصتي آدم ويوسف، عبدالكريم الخطيب، دار المعرفة، بيروت، د.ط، د.ت.

– القصة في القرآن الكريم، د. مريم عبدالقادر السباعي، مكتبة مكة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

– الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوّض، وشارك في تحقيقه: أ.د. فتحي عبدالرحمن أحمد حجازي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

– لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقيّ المصريّ، دار الفكر، ط٣، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

– لطائف قرآنية، صلاح عبدالفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

– معالم القصة في القرآن الكريم: دراسة تحليلية للقصة القرآنية بدءًا من تعريفها وانتهاءً بالإسرائيليات المدخلة عليها مع الأدلة والشواهد، محمد خير محمود العدوي، دار العدوي، عمّان، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٨٨م.

– ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه لمتشابه اللفظ من آي التنزيل، أحمد ابن الزبير الغرناطي، تحقيق: محمود كامل أحمد، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت.

– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، خرّج أحاديثه ووضع حواشيه: عبدالرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.